



وذرفت عيني الدمع حين بلغني نبأ وفاة الأستاذ
المرحوم الدكتور عبدالرحمن رأفت الباشا، وما كان
لعين عرفته أن يحتبس دمعها، إلا عينا حرهما الله من
العاطفة الإنسانية، وطار الخيال وسبح الفكر محلقا
لآخر لقاء لي كان معه في آخر شعبان ١٤٠٦ هـ، إذ زرته
للطمأنينة على صحته فطالت الزيارة إلى حد ما، وما
ظننت أنها زيارة مودع، كان يهش ويبش وتعلو وجهه
بسمعة اعتاد أن يقابل بها زائريه وطلابه، لم تتغير معالم
وجهه وهو يسرد شيئا من معاناته مع المرض ومغالبة
لنفسه لتقبل كل يوم أن تتناول حوالي أربعين حبة
وصفها له الأطباء، ثم انصرف بالحديث بسرعة عن
إجابة سؤالي عن صحته إلى الكلام عن أمور ثقافية،
وكانت أوراقه تحيط به، فقد كان يقرأ ويكتب في
مجلسه، فبين حين وآخر يدخل عليه محب لزيارته.



الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا..

نفس الحر.. وجلال العالم

في جلسته تلك كان جل حديثه عن أدب الطفل،
وضرورة رسم منهج له وتدريبه في الجامعات
لحفظ براءة الطفولة من تيارات
الغزو الفكري، وعرفت منه في تلك
الجلسة أنه في انتظار انتهاء العام
الدراسي لأن الأطباء نصحوه بالسفر
إلى أمريكا لعلاج قلبه الكبير، ولكن
لكل أجل كتاب، فقد توفي وهو في
تركيا يحضر إحدى ندوات الأدب
الإسلامي الذي كرس له الكثير من

لقد كان نبأ وفاته وقع كبير وخاصة
على تلاميذه، فهو أستاذ بكل ماتعنيه
هذه الكلمة جلدًا وصبرًا، وإخلاصًا
ونزاهة، ووفاء للعلم، وهو كما يقول ابن
دريد راثيا الطبري المؤرخ:

إن الحنية لم تتلف به رجلا

بل ألتفت علما للدين منصوبا



د. عائض الرادوي - السعودية

لمستحقيها من طلبة علم، خصصها لهم، وأصدقاه ومشاركوه في ذلك المشروع أعرف به وأولى بالكتابة عنه.

وقرأت لبعض محبيه أن الدكتور لم يترك مؤلفات كثيرة تتساوى مع ما كان يتمتع به من غزارة في العلم وسعة في الاطلاع، وهذا صحيح لو أن الدكتور الباشا كان متفرغا للتأليف والكتابة، ولكنه كان شغلة من النشاط في أكثر من حقل، من أهمها أنه كرس جهده في سنيه الأخيرة لرسم منهج الأدب الإسلامي وأدب الطفل، وتأسيس ذلك في الجامعات، فهو أثر أبقى من كتاب يؤلف في ذلك المجال، ثم حرصه على توجيه طلابه، فهو يعد الشهادة شهادة زور أن تخرج الطالب وهو غير مؤهل، ولن أجاوز الحقيقة إن قلت: إن ما كان يبذله من جهد في التوجيه لطلابه والتقويم لهم والإشراف على بحوثهم، أكثر بكثير مما يبذله من جهد لو أراد أن يكتب بحثاً.

ولو أراد الدكتور الباشا أن يستغل جهد طلابه كما يفعل

بعض أساتذة الجامعات لبارح الحياة وهو يترك مكتبة، ولكنه كان يمتلك روح العلماء، ونفساً أبية، يكبح جماح مطامعها ما ينطوي عليه صدر صاحبها من أنفة وترفع عما لدى الناس مادة ومعنى، وإنصاف كل ذي جهد بنسبته إليه، وما كان يفض من طلابه مثل غضبه إذا وجد طالباً استفاد من جهد غيره دون نسبة، وهذا واحد من أسباب إكبار طلابه له، ومن أكرمه عزة النفس أكرما.

وبكل تجرد وموضوعية نذكر أن الدكتور الباشا كان يحتسب الجزاء من الله في كل أعماله، ويقول لطلابه: لا أريد إلا دعوة صالحة. لقد رحل الرجل الآن وبقيت صدقاته الجاريات التي كان يحرص عليها ويرجو الدعاء له فحسب، لقد تذكرت ذلك حين زرت . بعدما تناهى إلي ذلك الخبر الحزين - غرفة شرفها الله أن تكون أظهر بقعة في تلك المدينة الإنجليزية إذ اختارها المسلمون مسجداً يذكر فيه اسم الله، وكانت تحتوي على مكتبة صغيرة، امتدت يد مصاحبي

مصادفة . ولم يسمع بالدكتور الباشا فضلاً عن معرفته . وتناولت نسخة من كتاب صور من حياة التابعين.

خطفتها منه وكنت أحس أنها وصلتني بأستاذي، ورفعت الغلاف أتأمل الاسم فإذا بعيني تصافح خطأ باليد لا تتكره، إنه إهداء المؤلف سطره بيده:

«اللهم إني أحببت الصفوة المختارة من ثقات التابعين؛ حبا لا يفوقه إلا حبي لصحابة الرسول الكريم . صلوات الله

وسلامه عليه وعليهم أجمعين ، اللهم فهيني يوم الفزع الأكبر لأي من هؤلاء أو هؤلاء، فإنك تعلم أنني ما أحببتهم إلا فيك، يا أكرم الأكرمين..»

وللأمانة أذكر - وقد لقي الرجل ربه . أنه كان ينفق في وجوه الخير دون أن يعرف ذلك إلا القليل ممن تسهم الظروف في اطلاعهم على ذلك، وأعرف أنه كان يأخذ مكافأة بعض برامج للإذاعة، فلا تبقى في يده إلا بمقدار ما تستغرق من زمن لتحويلها





لكل شيخ طريقة، فهي طريقة له مع طلابه يعلمهم من خلالها كيفية استخدام المصادر للوصول إلى الجواب. حتى إذا ما عرف الطالب كيف يبحث وأين، أجابه جواباً لا يحتاج بعده لأن يعود لكتاب، لقد كان - رحمه الله - يركز تركيزاً كثيراً على أن يتعلم الطالب البحث والتنقيب عن المعلومات، ولا يركن إلى الكسل والحصول على ما يريد بأيسر السبل.

لم يكن من أنصار طباعة المذكرات ليقرأها الطالب ثم يدخل صالة الامتحان، بل يسرد في نهاية كل محاضرة عدداً من المصادر عن الموضوع، وإن كان الطالب الذي يتابعه باهتمام، ويعلق بعض رؤوس الأقلام المهمة، ثم يصوغها بعد المحاضرة، لا يحتاج لأن يعود إليها، إن كان الهدف هو الامتحان.

وهناك أكثر من سبب يجذب الطلاب للإنصات لمحاضراته في سكون شديد، ومتابعة بشغف، من أهمها - بعد غزارة المعلومات - بيانه السلس، وطريقته المميزة في الأداء، فالكلمات تتابع على لسانه بسرعة عجيبة، وجرس لفظي جذاب، دون أن يختل تسلسل الفكرة، أو يعرولسانه تلثم، أو يكسر قاعدة لغوية، فإذا ما وصل لبعض الكلمات ضغط عليها ضغطاً شديداً الانتباه إليها ونبه إلى أهميتها. أما تكرار عبارة: قبل أن تتم فائدة الجملة، فذاك لون آخر من ألوان توجيه الانتباه إلى ما ستم به الفائدة ليرسخ في الذاكرة، وإذا سمعه طلابه ينطق كلمة فهو حجة في اللفة وسلامة النطق، إذ لا يعدل عن الراجع إلى المرجوح، ولا يلفظ كلمة ويستخدمها إلا بعد التأكد التام من سلامتها من اللحن، أما العامية فلا تعرف سبيلاً إليه.

وكان تذوقه الرفيع سبباً من أسباب الإقبال على محاضراته، وهو يتجاوز التذوق في انتقاء الكلمات أو اختيار النصوص الأدبية إلى التذوق العام في الحياة

على أن مؤلفاته المطبوعة ليست بالقليلة، مضافاً إليها الكتب المدرسية، أو التي أشرف عليها، وأعتقد أن لديه بحوثاً لم تنشر، وخاصة فيما كتبه عن الصحابة الكرام، وفي الأدب الإسلامي وأدب الطفل.

لم يكن ما حبيب عبد الرحمن الباشا لطلابه وأقام بينه وبينهم رباطاً وثيقاً هو عطفه أو مجاملته، أو إعطاء الدرجات جزافاً، أو غش النظر عن بعض الهفوات، أو منافع يرجوها منهم، أو ما شاكل ذلك، بل جلال العلم، ورزانة الشخصية، والإخلاص في التوجيه، والصدق في التعليم.

إذا دخل ليلقي المحاضرة في النقد الأدبي وهي مادة ثقيلة على النفس البشرية لأنها أشبه بالقوانين أحياناً شد الطلاب شداً عجبياً، حتى ليحس طلابه عند انقضاء المحاضرة أنها أقل من دقائق المحاضرات الأخرى.

كان قاسياً في النواحي العلمية لا يقبل فيها أي عذر، ولا أظن أحداً من طلابه يستطيع أن يقول: إنه جامله ولو في نقطة حرف تركها. إذا عثر على ملحوظة على الطالب وضع استفهاماً كبيراً، فتأخذ الطالب هيبة من مقابلته لما يراه من قراءته لكل سطر، وتدوين ملحوظات على الهوامش، حتى إذا ما لقيه وجد عنده لين الأبوة، وروح الأستاذ، لينا في التوجيه، وصلابة في العلم، وبعداً عن الحيف على الطالب أو على الموضوع.

أما عبارة: يا بني! مجموعة للطلاب، ومفردة مصغرة للطلاب؛ فلازمة من لوازم لسانه، وإن تجاوزها فإلى عبارة: يا طيب يابن الطيبين! ويحس من تصافح أذنيه عبق الصدق يفوح منها، وإن سأله طالب - في المحاضرة أو خارجها - سؤالاً لا يبادر بالجواب بل يكون الجواب: أتدري أين تجد هذا يابني؟ ولا تظنه يفعل ذلك تهرباً من الجواب، ولكن

تعد نموذجا فريدا في تجسيم النفوس الكريمة، ومما قاله فيها:

وكل حكيم مبتلى أي بجاهل

ولو أنه لقمان أو هو أحكم

ولكنني لا أرعوي عن مأربي

ولا أنثني عنها ولا أتلعثم

هذا الشاعر قيل عنه في زمانه: إنه سيد المفسرين ومجدد قرنه. وقد ناله ما ينال من يعمل بصدق من أذى ذوي النفوس المريضة، وشأن الدكتور الباشا في ذلك شأن أولئك الكرام، والمهم في الأمر أنه كان يضرب صفحا عن كل من غمز ولمز، ووصف الحسنة بأنها عوراء، فيقولون: إنه أرهق طلابه بالبحوث والكتابة ومناهج البحث، وكان موقفه من ذلك لا يزيد عن: سامحهم الله! المهم أن يخلص المرء في عمله، وينتج إنتاجا علميا صحيحا، وليس ذلك بغريب على رجل هجر مسقط الرأس إلى غير رجعة، وآثر ذلك على أن يحني هامته، أو ينقص قدر كرامته.. وكان توفيق الله حليفه.

لقد عرفت عن معايشة: لماذا كان الدكتور الباشا يهتز طربا وهو ينشد شعر القاضي الجرجاني في نفسه الغالية العالية؟ إنه التوافق بين النفسين، والاتفاق بين الطبيعتين، ومن هنا كان انقباضه أحيانا، وميله للعزلة، فنفسه لا تطيق الإهانة أيا كانت درجتها من الضعف، ومما قاله الجرجاني في هذا المجال:

واللباس والتعامل، يرتدي المشلح فتراه وهو يهتز وكأن طرفيه جناح طائر يخفق به في توازن دون ميل أو سوء في المظهر، فيظن من لا يعرفه أنه كبير، ولكن من يعرفه يعرف أنه شموخ نفس حرة، وأبهة علماء، وتذوق رفيع، ولا أبالغ إن قلت: إنه لم يغرس في طلابه التذوق السليم للنصوص الأدبية فحسب، بل تذوق الأمور الجميلة في الحياة.

وهو مع مهابته مظهرا وعلميا وجديا في البحث والإشراف، رجل لطيف المعشر، لين الجانب، يقطر وجهه خجلا، فيفضي حياء ويغضى من مهابته.

كان جل وقت الدكتور الباشا بحثا أو إشرافا على بحث، أو عملا أكاديميا، من محاضرة أو مشاركة في لجان علمية أو إدارة، ولم يجد المرض من نشاطه، أو يكدر نفسه لتصرف عن الإنتاج العلمي.

وقد واجه بسبب ذلك نقمة الناقمين وحسد الحاسدين، الذين لا يسرهم أن يعمل ذوو الهمم العالية إذا قعدت بهم

نفوسهم، وارتاحت للإخلاد للراحة، أو إضاعة الوقت في القيل والقال، ويغيظهم أن ينتج المرء، ويزدادون حنقا إذا حالف إنتاجه النجاح. لقد عاش في المدينة المنورة الشاعر المدني محمد بن رسول البرزنجي ١٠٤١ - ١١٠٣ هـ ودخل في حياته ثمانين مدينة سعى إليه وجهائها ليمدحهم ويتزلف إليهم، ولكن نفسه كانت تكره المداينة ومدح الناس بما ليس فيهم، ولذا حسده الحاسدون، وكاد له الكائدون، فأنشأ قصيدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
اَقْرَبُ إِلَيَّ أَحَبُّ الْقَعْوَةِ الْمُتَمَتَّةِ مِنْ ثَقَاتِ الثَّاقِبِينَ
مُبَا لَانْفِوْقِهِ الْأَحْبَبِيِّ لِعَمَابَةِ الرَّسُولِ الْأَرْبَابِ
صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ وَمَنْ يَلْبِسُهُمْ أَجْمَعِينَ
اَللَّهُمَّ تَهَنِّي بِذِمِّ النَّعْمِ الْأَكْبَرِ لِذِي بِنِّ قَوْلِهِ: اَدْعُو لِدَوْلَةٍ
فِيَاكَ تَعْلَمُ أَنِّي مَا فَيْسَتْهُمْ إِلَّا فَيْلَهُ، يَا أَرْؤْمَ الْأَرْبَابِ
عبدالله



عندما التحقت بالإذاعة - كان يجد راحة في أن أكون مسؤولاً عن برامجه، كان مثالا للتعامل الجيد والدقة في العمل، يولي إنتاجه عناية خاصة، ويرتب كل شيء قبل أن يصل للإذاعة، فإن كانت ندوة اختار الضيوف بدقة، ودخل الاستديو مع ضيوفه وقد اتفق معهم على مخطط سيرها، فلا يدع مجالا للتكرار أو سطحي الأفكار، وتبدو على قسماات وجهه علائم الاستياء إذا جنح أحد الضيوف عن الموضوعية، ولكنه لا يقاطعه، بل يستدرك ويعلق، ويظهر للمستمع أن ذلك رأي للضيف ولكل ما رأي.

أما بعض العبارات التي لا يرتضيها فينتحي بي بعد التسجيل جانباً ويقول: ألا يمكن حذف هذه الكلمة. وكان يتهرب من استخدام كلمة (مونتاچ) لأنها أجنبية. وأذكر مثالا على ذلك، ففي مرة أخذت أحد الضيوف الحماسة في مناقشة موضوع الدعوة للعامة، وقال: لحساب من ترتكب هذه الجريمة؟! وعند انتهاء التسجيل قال لي: يا بني الموضوعية في النقاش تستدعي أن تقرر النجدة بالحجة دون الطعن في ذمم الناس.



يقولون لي: فيك انقباض وانما

وأوأرجلا عن موقف الذل أحجما

إذا قيل: هذا مشرب، قلت: قد أرى

ولكن نفس الحر تحتل الظما

ويقول أيضا من مقطوعة أخرى:

وقالوا: توصل بالخضوع إلى الفنى

وما علموا أن الخضوع هو الفقر

وبيني وبين المال بابان حرما

علي الفنى: نفسى الأبية والدهر

إذا قيل: هذا اليسر، عاينت دونه

مواقف، خير من وقوف بها العسر

تلك نفس عبد الرحمن رأفت الباشا وجبلته التي طبعه الله عليها! تجد روحها في شعر الجرجاني، ولا أعتقد أن واحدا من تلاميذه يقول: إنه جاءه يوما يرجو منه أن ينجز شيئا ولو مما لا يجرح كرامة. وهو مثال في الإنصاف والاعتراف بالفضل لأهله، فعندما تبنى فكرة أدب الدعوة الإسلامية لم ينسب الفضل لنفسه، بل جهد ما وسعه الجهد في إبراز فضل سابقه كتابة ومحاضرة، بل ودعاية لإنتاجهم، على أن الفضل الكبير له في إبراز الفكرة للوجود، ولفت نظر الأكاديميين لها، ورسم منهج لها وتنفيذ الكثير من الأفكار حولها.

تجربته في الإذاعة:

وتجربة الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا في الإذاعة تجربة ثرية، وهو لم يكن من المهالكين على الكتابة للإذاعة أو غيرها، ولا يقدم على ذلك إلا بعد أن يطلب منه، على أنه ليس من المتعاليين الذين يصطنعون الترفع، ولذا فهو سهل الاستجابة، وإن اعتذر فلعذر مقنع كثرة أعماله. تجربته مع إذاعة الرياض تسبق عملي بها، ولكنه



والأسلوب البياني الذي كتبت به، ثم النية الحسنة لكتابتها، واحتسابه أن تكون تلك الصور نبراسا لفتيان وفتيات المسلمين في زمن أصبح فيه الأعلام الأجانب أو من لف لفهم هم الأسوة ومناطق إعجاب الشباب. ولم يخرج الدكتور الباشا عن نهجه فيشعر الناس أنه أتى بشيء من عنده، بل سرد في نهاية كل قصة مصادرها، وذلك مما أبرز جهده وأوضح عمله فيها أمام القراء، حيث نهل من القديم مادته، وعرضها في أسلوب بياني ولغة عصرية تتسلل لنفوس الناشئة، ويسهل عليهم فهمها.

إن الدكتور الباشا ليس فريدا في زمانه ولا وحيدا في صفاته، ولكنه نموذج من خيار هذه الأمة الذين أنعم الله بهم في شتى العصور، وأخلصوا لعقيدتهم ولسلف الأمة وخلفها، ولم ييخلوا عليها بوقت أو صحة أو مال حسب ما وهبهم الله... رحمه الله رحمة الأبرار والصالحين ■

وقد كتب لإذاعة الرياض أحاديث وأعد برامج، منها: بيت القصيد، ومع أدب الدعوة الإسلامية، وصور من حياة الصحابة، وصور من حياة التابعين. ولعل البرنامجين الأخيرين هما اللذان ارتبطا في أذهان المستمعين، وهما برنامجان متشابهان في المنهج، وثانيهما امتداد للآخر، وكان في نيته أن يواصل التسلسل فيعد برنامجا باسم صور من حياة إخوان النبي وهم من بعد التابعين.

«مسلكه الخاص في إعداد صور من حياة الصحابة والتابعين»

لم يسلك الدكتور الباشا في إعداد صور من حياة الصحابة والتابعين مسلك المترجمين الذين يكتبون بأن فلانا عاش ومات وفعل كذا، بل إن الصور المشرقة لسلف هذه الأمة امتلكت عليه حواسه، فراح يعبر عن مداخلتها له وتأثيرها في نفسه، فجاء إعداده يحمل نفسا أدبيا، ونسقا بيانيا، وبوحا عن أثر أولئك العظام في نفسه، لا يعرف باسم الصحابي أو التابعي بل يأخذ صورة من صور حياته ويرسمها بالكلمات، ويجليها بأدائه الرائع الذي يعبر هو أيضا عن مدى تفاعله مع الصحابي، فإذا ما ملك على المستمع مشاعره وشده من خلال تلك الصورة التي التقطها ورسمها، راح يقول: ذاك هو صحابي رسول الله ﷺ أو تابعيه فلان، ثم تنداح أمامه الصور فيقدم الواحدة تلو الأخرى بقدر ما يتسع له الوقت.

المادة ليست جديدة، ولكن الجاذبية كانت في اقتناص المعد للصور وتصويرها في صورة بيانية عالية، ثم في أداء الدكتور الباشا وهو يقدم البرنامج، وقد طبع بعضها فيما بعد في كتب، كانت من أكثر الكتب شيوعا وانتشارا، لما تحملته من صور مضيئة للصحابة والتابعين، ولعلو المنهج الذي قدمت فيه،